الفصل الأول

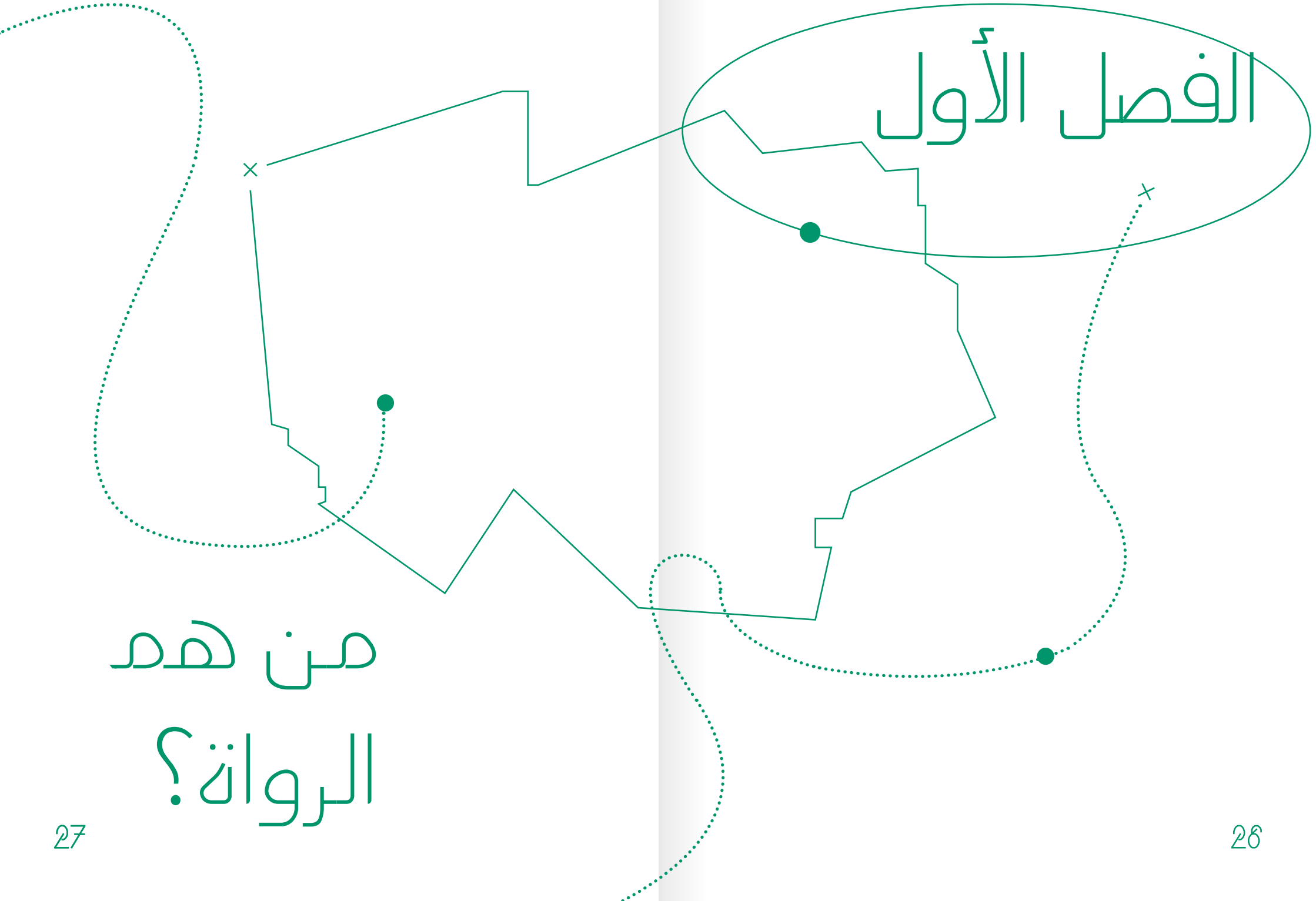

من هم الروان؟

من هم الرواة؟

ترتبط القصص، سواء المكتوبة، المصوَّرة أم المسجّلة، بشكل وطيد برواتها. وتختلف طريقة سرد القصة باختلاف من يسردها ومن أين يأتي. فالموضوع نفسه قد يتمّ بحثه وسرده بأساليب مختلفة بحسب الخلفيّة، الخبرات، الجنس، الفئة الإجتماعية، وجوانب أخرى من شخصيات الرواة. المكان نفسه يمكن رؤيته من زوايا مختلفة، كما يمكن التماهي مع المفهوم نفسه بطرق مغايرة. وبالتالي، تتشعّب طرق سرد القصص المتعلقة بالهجرة والتنقّل بتشعّب الرواة. لذلك، سنستهلّ الفصل الأول من هذا المنشور بالتساؤل: «من هم الرواة؟»

يبحث هذا الفصل في مسألة من يروي قصص الإغتراب في العالم اليوم. كما يصف مفعول نقص التنوع في الرواة على فهمنا للموضوع، وكيف تؤثّر ديناميكية السلطة في المجتمع على من يحظى بنقل القصص وسردها. كذلك يضيء على أهميّة المعرفة «الخبيرة»، أي تلك المكتسبة عن طريق الخبرة، وذلك عند نقل موضوع الإغتراب، وعلى ما يؤدّي إليه التفكير الذاتي من صياغة أفضل.

أولاً، من أجل تقفّي الأثر الذي يتركه الرواة، كالصحافيين والمتواصلين مع المنظّمات غير الحكومية، على نظرتنا إلى الإغتراب، يجب أن ننظر عن كثب إلى من هم هؤلاء الرواة. على الرغم من المزيد من التنوّع في غرف الأخبار، المعاهد، والمنظّمات، يبقى التوازن في التمثيل ناقصاً. ما زالت القصص تُروى من منظار الغرب وتُنشَر على منصات تأسَّست في ذلك الجزء من العالم.

كذلك الأمر للجمعيات الدولية غير المتوخّية للربح، ومموّلوها ضمناً. فعادةً ما تُنقَل قصص الإغتراب من قبل أشخاص تنقصهم الخبرة الحيّة المكتسبة من خلال الإغتراب، وهم غالباً ما ينظرون الى الأمور بعينٍ خارجيّة.

«حينما أروي أيّ قصة، فأنا أروي قصتي الخاصة».

لقد طرح هذه المشكلة العديد من المشاركين في ورش العمل. يقول سميح محمود الصحافي التصويريّ الفلسطينيّ الذي يعمل لدى المنصّة الالكترونية «كامبجي» في مخيمّات بيروت للاجئين أنّ خبرته الشخصية كنازح فرّ من الحرب في سوريا منحته وجهة نظر مختلفة للموضوع. «أن أنتميَ إلى المنطقة نفسها التي أغطّيها وأن أواجهَ الظروف نفسها التي يواجهها الغير الساكنين هناك يعني أنّني، حينما أروي أيّ قصة، فأنا أروي قصتي الخاصة. مشاكل الناس هي أيضاً مشاكلي».

نفس الأمر وصفته زميلته من كامبجي ريان سكّر الفلسطينية التي وُلدَت ونشأت في لبنان: «حين بدأت بالعمل هنا، شعرت أنّ هذا المكان هو منزلي، وأنّني أعبّر عن نفسي هنا، وأنقل الرسائلَ بشكل أفضل من شخص خارجيّ». إنّ موقفها كشخص منتمٍ الى المجموعة يسمح لها، كما تقول، أن تقدّم الأشخاص كما يرغبون في أن يتمّ تقديمهم.

يُنتج كلّ من محمود وسكّر فيديوهات تُنشَر إلكترونياً ويشاهدها المقيمون في المخيّم كما العديد من الأشخاص من خارج المخيّم. يقولان أنّ إرادتهما اتّجهت منذ البداية لأن يكونا صوتاً محلّياً مسموعاً، وهذا الأمر لم يكن متاحاً قبل كامبجي.

شعارنا: «من المخيّم والى المخيّم»، أو «من اللاجئ وإلى اللاجئ».

شعارنا: «من المخيّم والى المخيّم»، أو «من اللاجئ وإلى اللاجئ».

وتحدّثت الصحافية السورية التي تعيش اليوم في برلين، فاطمة الحجّي، بالطريقة نفسها عن المعرفة الحيّة.

لقد تذكّرت خبرتها حين وصلت الى لبنان مع عائلتها وكان عليهم التسجيل كلاجئين في الأمم المتحّدة. «كان الأمر في مطلع العام 2014، وكانت قصص النازحين تملأ المكان. وكان يوجد في الأمم المتّحدة صحافيّ يحمل آلة تصوير كبيرة فقلت في نفسي ربّما رآني أحدهم على التلفاز، لا، لا أريد أن أشاهَد على هذا الشكل». وبالنسبة للحجّي فإنّ هذه الخبرات وضعتها في وضعية مميّزة عن باقي الصحافيين الكاتبين عن الإغتراب: «أصبح لديّ الوسائل لسرد هذه القصص، فأنا أرويها بأسلوب يتماهى معه الناس».

في حين يحظى الصحافيّ ذو الخبرة الشخصية في الإغتراب بفهم عميق للموضوع، فهذا لا يعني حتماً أنّ أسلوبَه في السرد هو أفضل من سواه. ثمة حالات يكون فيها الرأي الخارجي مهمّاً، وحالات أخرى يكون النقل «من منظار داخليّ» أكثر قيمةً، غير أنّ المشكلة الأساسية في وسائل الإعلام العادية التي تغطّي الإغتراب هي أنّها غالباً ما تغيّب الحالات الأخيرة-أي الحالات التي تحكي عن خبرة شخصية.

إنّ الفهم المباشر لواقع معيّن له أيضاً أثر على القصص المُنتَجة. تحدثت يبلينا دزيكزينيفا، عالمة الأنثروبولوجيا التي انتقلت من كازاخستان الى فرنسا لمتابعة دراستها، عن الإختلاف في وجهات النظر بين من اختبروا القصة ومن لم يختبروها. وتقول أنّ أحداً لا تراوده فكرة بأنّه سيصبح فقيراً أو أنّه سيخسر منزله، فهذه الأفكار ليست من الأفكار التي ينتجها الذهن طبيعيّاً. لذلك قد يحظى هؤلاء الذين اختبروا التشرّد مباشرةً بفهمٍ أعمق، ليس فقط للإغتراب بل أيضاً لسائر المصاعب التي تواجه المغتربون. وذلك لأنّهم يمكنهم التعاطف مع النازحين، وبالتالي فهم الفقر أيضاً.

وتقول شهرزاد سراج، وهي طالبة وكاتبة من فرنسا، أنّ أصولها المغربيّة سمحت لها بملاحظة بدل رفع الأنماط التي تظهر في الإعلام بسهولة: «منذ صغري، وأنا أرى العنصرية إزاء شعوب شمال افريقيا وافريقيا عموماً تُعرَض على التلفزيون الفرنسي. في بعض الأحيان ينطبق الأمر على المسلمين عموماً وليس فقط على النساء اللواتي يرتدين الحجاب.

وبما أنّ والدتي محجّبة، فنحن نعي أنّ ما يُنشَر عن الأمر على وسائل الإعلام لا يشبهنا. لذلك تكون القصص من وجهة نظرنا مهمّة علينا أن نخبر قصتنا بأنفسنا ولا يمكن أن يكون لنا فقط حلفاء، أي أشخاص يخبرون قصتنا، على الأقلّيات أن تروي قصصها من منظارها الخاص».

«علينا أن نخبر قصتنا بأنفسنا ولا يمكن أن يكون لنا فقط حلفاء، أي أشخاص يخبرون قصتنا».

ثمة أساليب للنظر الى القالب الذي تُفرَغ فيه القصة. إحداها أن نعي وضعيتنا، أي كيفيّة تأثير الهويّات الإجتماعية والسياسية في نظرتنا الى العالم.

وتقول الباحثة البولونية إنجا حيدروويتش، طالبة دكتوراه في الأصول والأساليب النسويّة للنازحات، أنّها بدأت بالتفكير على هذا المنوال في سنٍّ باكرة: «لقد قضيت معظم وقتي جديّ، في محيط مكوّن من الطبقة العاملة. كنْتُ أحضر الاجتماعات النسويةّ، كما أقوم برحلات بحث مع والدتي التي كانت تعمل أيضاً كعاملة إجتماع، وهذا الأمر طبعني، تماماً كما طبعني النشوء في زمن تقلّبات ما بعد الشيوعية في بولونيا، ومعرفة تاريخ عائلتي في الهجرة والاغتراب. كلّ هذا قد حدّد كيف أرى من هو ممثَّل، ومن هو مسموع، ومن لا».

وتأثر فكر الصحافية اللبنانية نور غصيني بخبراتها الشخصية كما تقول. فهي تصرّح أنّها في مرحلة معيّنة، كبتت العنصرية: «لم أكن أعلم أنّني عنصريّة. فأحياناً، الحوادث والقصص التي يخبرها إيّاك الناس، والأفلام التي تشاهدها، وكذلك الأنماط التي يتمسّك بها والداك، تؤثّر فيك. فهذه الأمور كافةً، شئنا أم أبينا، تؤثّر في كيفية رؤيتنا للحياة».

وتضيف سكّر من «كامبجي» أنّ اختبار نوع واحد من الهجرة يجعل رؤيتنا أعمق فيما يختصّ بخبرات سائر الأشخاص عموماً. فهي تتذكّر حين تمّت مقابلتها من أحدهم ممّن اختبر في عائلته أيضاً مسألة النزوح: «لقد كانت المرة الأولى التي شعرت فيها بالراحة خلال مقابلة مع أجنبيّ. لقد شعرت بأنّه يريد الإصغاء، وليس فقط الحصول على المعلومات. لقد شعرت أنّه يفهمني، وهذا يعود برأيي إلى كونه اختبر الإغتراب بصورة شخصية».

وعلى الرغم من أنّ خبرتهما لم تكن متشابهة، شعرت سكّر بالترابط بينهما: «لم أضطر إلى اللجوء إلى الشرح مع أنّنا من أماكن مختلفة. وهو أيضاً أطلعني أنّه يواجه صعوبات في الهويّة، وهو أمر مشتَرَك فيما بيننا».

يجب عدم اللغط بين الخبرة الشخصية عند نقل الإغتراب، ومسألة أنّ الأشخاص من المغتربين لا يمكنهم في المبدأ نقل القصص عن أنواع الإغتراب كافة، أو أنّه يجب أن تنحصر قصصهم فيما عاشوه. إنّه لمن الشائع أن يُطلب رأي أيّ نوع من المغتربين عن مواضيع أخرى. وتقول سراج: «الناس في فرنسا يعتقدون أنّه كوني آتية من المغرب يجعلني أكثر دراية فيما يحصل في إيران أو في الشرق الأوسط. وأنا أقول لهم عذراً، أنا لا أعرف إيران، فأنا بالكاد أعرف المغرب».

وذكر بعض المشاركين أنّه يجب على اللاجئين والنازحين أن يكونوا أيضاً كتّاباً، وليس فقط من أبطال قصص الصحافيين. ومن بينهم ضحى قاضي من منظّمة سوا للإغاثة والتنمية التي تدعم اللاجئين في لبنان إذ تقول: «لهذه القصص محاسن عديدة، فهي تُظهِر هؤلاء الأفراد على أنّهم مفكّرون ومشاركون فعّالون في المجتمع».

إنّ هذا النوع من الروايات عن الإغتراب واللجوء يبقى نادراً، وذلك بسبب ميزان القوى في المجتمع. فبعض العوامل مثل الطبقة الإجتماعية، الجنس، الـ «إعاقة»، العرق والجنسيّة، تُحدث خللاً في مبدأ مساواة الأشخاص في العلم، الإعلام، الدعم وفرص العمل. إنّ الهيكليات الاقتصادية والسياسية والثقافية تفتح المجال لانعدام التوازن، والأمر مطبّق أيضاً في عالم الإعلام، المعاهد، المنظّمات الدولية، والمجتمع ككلّ. وهذا ما يحدّد من يحظى بإيصال قصته ومن لا يحظى.

تلقي سراج، الطالبة والكاتبة في فرنسا، اللوم على العدالة: «إنّ معاهد الصحافة والبرامج الجامعيّة غير متاحة للجميع على حدّ السواء. إنّ غالبية المغتربين يقطنون في مناطق فقيرة، فنحن لا نعيش بجوار مدارس جيّدة، لذلك لا نحظى بفرصة التأثير في الإعلام».

وفي السياق نفسه، تذكّرت دزيكزينوفا ندوة صحافية حضرتها بعد الإعتداء على شارلي إيبدو في فرنسا: «لم يكن من تنوّع فيما بين الحاضرين في الندوة، في حين إن خرجنا إلى الشوارع سنرى أنّ الناس لا يشبهون بعضهم. ما دفعني للقول: «كيف لهؤلاء أن يكونوا صحافيين؟».

لقد انطبعت لدينا نوعاً ما صورة أنّ الصحافيّ أو العامل في المنظّمة غير الحكومية يكون شخصاً أبيضاً من الغرب. وفي الواقع يبقى الاستثناء نادراً. فلكم أن تتخيّلوا أن يذهب صحافيون من أوغندا، وغواتيمالا، وبنغلادش إلى الولايات المتّحدة أو ألمانيا لتغطية التقارير هناك- غالباً دون إيجاد اللغة أو فهم إطار القصة. في الحقيقة، عوضاً عن الحصول على تقاريرهم، يتمّ توظيفهم كميسّرين، مترجمين وأدلّة للصحافيين الغربيين.

إذاً يحظى الصحافي الغربيّ على التنويه فيما يُنكَر فضل الميسّر الذي غالباً ما يكون شارك بشكل اساسيّ في اعداد التقرير. إنّ الإختلاف بين صاحب

التقرير والميسّر بحسب الصحافية بريانكا[1] بوربوجاري، «لا يعتمد على الخبرة أو الكفاءة، بل على الجغرافيا. بعبارة أخرى، على الوصول الى أروقة السلطة في الإعلام».

1 | cjr.org/special_report/fixers.php

إنّ فرصة نقل القصة هي مسألة امتياز على أكثر من صعيد. فأبواب الإعلام والمنظّمات غير الحكومة غير مفتوحة للجميع على حدّ السواء. في المقابل، بلوغها يعتمد على الهيكليات الإجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمع.

«إنّ فرصة نقل القصة هي مسألة امتياز».

وهذا الأمر صحيح فيما يختصّ بنقل قصص الإغتراب.

إنّ الأفراد الذين نزحوا، أو تشرّدوا، أو كانوا من المغتربين قلّما ينقلون القصص عن الإغتراب. بل هم في العادة ممّن يتمّ نقل قصصهم من قبل الغير. وهذا لا يؤثّر على الأفراد المهمّشين في الإعلام وغيره فحسب، إنّما يحدّ أيضاً من الفهم لدى الناس الذين حُرِموا من سماع الروايات المختلفة. إنّ ضمّ الأصوات المتعلّقة بالاغتراب تفتح النقاش حول فهمٍ صحيح لمفهوم الإغتراب عالميّاً.

الأسئلة في هذا الفصل:

من يروي قصص الهجرة في عالم اليوم؟

كيف تؤثر هوية الرواة وتجاربهم الشخصية السابقة على روايتهم للقصّة؟

ما الدور الذي تلعبه ديناميات القوة في طريقة رواية قصص الهجرة؟